تدخين المراهقين

دراسة موضوعية

بقلم

عبده ميخائيل رزوه

مدرس الفلسفة بالمدرسة العباسية بالاسكندرية

تمهـــيد :

التدخين من الظاهرات التى تنشأ فى دور المراهقة غالباً . وهى فى حياة المراهقين ظاهرة مميزة جديرة بالدرس من حيث علاقاتها بالخصائص التى تميز المراهقة ، ومن حيث مقارنة مكانها فى حياة المراهقين بمكانها فى حياة الكبار . وينظر المجتمع إلى الطلاب المدخنين — وحولهم يدور بحثنا الموضوعى — نظرة ملؤها السخط والإنكار . يتجلى ذلك فى موقف المدرسة منهم وفى موقف البيت أيضاً . وهذا يجعل لموضوع بحثنا أهمية خاصة .

طريقة البحث :

قمنا على أثر دراستنا لبعض حالات الطلاب المدخنين فى مدرسة ثانوية بوضع استخبار (سنأتى عليه) حاولنا به أن نجمع من المعلومات ما نراه لازماً لإلقاء ضوء على ظاهرة التدخين عند أمثال هؤلاء الطلاب . وقد نجحنا بعد ذلك — مستعينين ببعض هؤلاء الطلاب أيضاً — فى توزيع هذا الاستخبار على جميع الطلاب المدخنين فى ثمانية من فصول مدرسة ثانوية . وقمنا بعد ذلك بتفريغ النتائج وهى التى سنذكرها تباعاً بعد عرض الاستخبار .

استخبار عن تدخين المراهقين من الطلاب

الاسم السن شهر سنة السنة الدراسية التاريخ

١ — فى أى سن بدأت تدخن ؟

٢ — ما عدد السجاير التى كنت تدخنها فى اليوم حين بدأت التدخين ؟

٣ — ما عدد السجاير التى تدخنها فى اليوم الآن ؟

٤ — بين عدد السجاير التى كنت تدخنها يومياً فى السنوات التى مرت منذ ابتدائك فى التدخين إلى الآن ؟

٥ — ما مصروفك الشهرى ؟

٦ — كم تنفق على السجاير كل يوم ؟

٧ — ما موقف كل من والديك من تدخينك ؟ هل يقاومانك ؟ أم يمنحانك الحرية ؟ أم أن موقفهما غير واضح لك ؟ موقف الأب (أو ولى الأمر) : موقف الأم :

٨ — هل سبب لك التدخين بعض المشكلات ؟ وما هى ؟

٩ — هل ترغب الآن فى الإقلاع عن التدخين ؟

١٠ — هل أبوك يدخن ؟

١١ — لماذا تعلقت بالتدخين ؟ هل كان ذلك لأنه يشعرك بالرجولة ؟ أم لسبب آخر ؟

١٢ — ما أهم العوامل التى تشجعك على التدخين الآن ؟ رتب ما يؤثر فيك من العوامل الآتية بحسب أهميتها لك : ا التسلية والسرور . ب تقليد الأصحاب . جـ المذاكرة . د تخفيف الهموم . هـ حب الفتيات . (وأضف أيضاً ما تشاء من عوامل) .

جدول ١

يبين الفصول التى شملها الاستخبار وعدد تلاميذها وعدد المدخنين منهم .

رقم	الفصل	عدد التلاميذ	عدد المدخنين	نسبة مئوية تقريباً	مدى الأعمار بين المدخنين
١	اولى ا	٤٠	٧	١٧٪	١٤ — ١٦ سنه
٢	ثالثه ا	٣٩	٥	١٣٪	١٦ — ١٧ سنه
٣	ثالثه ب	٣٩	٢	٥٪	١٨ سنه
٤	رابعه ا	٣٦	٦	١٧٪	١٨ — ٢١ سنه
٥	رابعه ب	٣٤	٤	١٢٪	١٧ — ٠٢ سنه
٦	خامسه أدبى	٢٥	١١	٤٤٪	١٧ — ٢٢ سنه
٧	خامسة رياضة	٢٢	٨	٣٦٪	١٦ — ٢٠ سنه
٨	خامسة علمى	٣٣	٣	٩٪	١٨ — ١٩ سنه
	جملة	٢٦٨	٤٦	١٧٪	١٤ — ٢٢ سنه

أولا : الوقائع المستمدة من الاستخبار

١ — نسبة انتشار التدخين فى المجموعة التى درسناها : تتضح من الجدول الاتى :

٢ — سن ابتداء التدخين : وجدنا أنه يتراوح بين سن ١٢ وسن ٢١ سنة . ولكن نسبة عدد المبتدئين تبلغ أقصاها بين سن ١٤ وسن ١٥ . وهذه القمة توافق ، بحسب بحث آخر أجريناه ، متوسط سن ابتداء البلوغ بين المراهقين . ويوضح الجدول الآتى سن ابتداء التدخين فى أفراد مجموعتنا :

جدول ٢

يبين سن ابتداء التدخين فى ٤٦ حالة من طلاب مدرسة ثانوية .

الأعمار	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	جملة
عدد من بدأوا يدخنون فيها	٤	٦	١٠	١٠	٦	٦	١	٢	—	١	—	٤٦

جدول ٣

يبين متوسط عدد السجاير التى يدخنها يومياً ٤٦ من الطلاب فى مختلف الأعمار التى باشروا التدخين فيها .

رقم	السن	عدد من دخنوا فيه	مجموع السجاير التى دخنوها يوميا فى تلك السن	متوسط تقريبى للتدخين اليومي
١	١٢	٤	١٠	٢
٢	١٣	١٠	٣٠	٣
٣	١٤	٢٠	٧٨	٤
٤	١٥	٢٩	١٤٣	٥
٥	١٦	٣٠	١٧٤	٦
٦	١٧	٣٣	٢٩٠	٩
٧	١٨	٢٥	٢٥١	١٠
٨	١٩	٢١	٢٠٦	١٠
٩	٢٠	١١	١٠٦	١٠
١٠	٢١	٤	٤١	١٠
١١	٢٢	٣	٣٩	١٣

٣ — مقدار التدخين اليومى وعلاقته بالعمر : يقاس مقدار التدخين بعدد السجاير التى يدخنها الفرد فى اليوم . وهذه تختلف من فرد إلى آخر ولكن متوسطها يميل إلى الزيادة بتقدم العمر ، بالرغم من بقاء الفروق الفردية . ويوضح الجدول الآتى هذه الزيادة التدريجية .

٤ — المصروف الشهرى وعلاقته بمقدار التدخين : يتطلب كل قدر من التدخين حداً أدنى من المصروف . وقد لاحظنا أنه كلما ازداد مقدار التدخين وقل المصروف كانت حالة الطالب أقرب إلى الفقر ، وأحوج إلى الدرس والمساعدة . ويبين الجدول الآتى مدى المصروف الشهرى بازاء مقادير التدخين المختلفة (جدول ٤) :

٥ — نفقات التدخين اليومية : هذه تختلف باختلاف عدد السجاير التى يدخنها الطالب فى اليوم . وقد لاحظنا أن ثمن السيجارة التى يدخنها أفراد هذه المجموعة

جدول ٤

مقارنة بين مقدار التدخين اليومى ومدى المصروف الشهرى فى ٤٦ حالة من الطلاب المراهقين .

رقم	عدد السجاير المدخنة يومياً	عدد الحالات	مدى المصروف الشهرى فيها مقدراً بالقروش	ملاحظات
١	١	٥	٥٠ — ١٥٠ قرشا	
٢	٢	٢	٦٠ — ١٠٠ »	
٣	٣	٦	٦٠ — ٣٠٠ »	
٤	٤	٢	٦٠ — ١٧٥ »	تضاف حالة لطالب متغرب
٥	٥	٤	١٢٠ — ٣٠٠ »	من الريف مرتبه الشهرى ١٠٠ ص
٤	٦	٦	٩٠ — ٢٥٠ »	
٧	٧	٢	٤٥ — ١٥٠ »	
٨	٨	٧	٦٠ — ٣٥٠ »	
٩	١٠	٥	٦٠ — ٤٠٠ »	
١٠	١٢	١	٤٥٠ »	
١١	١٥	٢	٢٠٠ — ٣٠٠ »	
١٢	٢٠	٣	٣٠٠ — ٤٠٠ »	تضاف حالة طالب منفصل
١٣	٣٠	١	٦٠٠ »	عن والديه مرتبه الشهرى ١٠ جنيه

يتراوح بين ربع القرش ونصف القرش تقريباً أو بين الثلاثة والستة مليمات تقريباً . وفى حالة واحدة أو حالتين اتضح لنا أن الطالب كان يختلس بعض السجاير من المنزل .

٦ — موقف الوالدين من التدخين : يميل أكثر الآباء فى مجموعتنا إلى تحريم التدخين على أبنائهم غير أن بعض الأمهات أميل إلى التساهل مع الأبناء . وهناك حالات يوافق فيها أحد الأبوين أو كلاهما معاً على تدخين الابن . وهناك حالات لا يستطيع المراهق أن يجزم فيها بموقف الأب أو بموقف الأم أو بموقفهما معاً من أمر التدخين . وفى هذه الحالة يقدم لنا إجابة تدل على هذا الشك . ويوضح جدول ٥ ذلك .

جدول ٥

موقف الوالدين من تدخين الابن فى ٤٦ حالة

الفصل	عدد المدخنين	حالات عدم موافقة الأب	حالات عدم موافقة الأم	حالات موافقة الأب والأم معا	حالات موافقة الأب فقط	حالات موافقة الأم فقط	حالات الشك فى موقف الأب	حالات الشك فى موقف الأم
أولى ا	٧	٥	٦	١	١			
ثالثة ا	٥	٥	٢					٣
ثالثة ب	٢	١					١	٢
رابعة ا	٦	٤	٤	١			١	١
رابعة ب	٤	٤	٤					
خامسة د	١١	٩	٦			٥	٢	
خامسة ر	٨	٣	٣	٢	١	٢	٢	١
خامسة ع	٣	٣	٢			١		
جملة	٤٦	٣٤	٢٧	٤	٢	٨	٦	٧
نسبة مئوية تقريبية		٪٧٥	٪٦٠	٪٩	٪٤	٪١٧	٪١٢	٪١٥

٧ — مشكلات التدخين والرغبة فى إبطاله : أشارت الردود إلى نشوء مشكلات عن التدخين فى ثمان حالات فقط من (٤٦) أى بنسبة ١٧٪ تقريباً من المجموع :

حالة فى السنة الأولى فيها خوف من الأب . وخمس حالات فى السنة الرابعة فيها ضيق فى المصروف وخلاف مع الأب . وحالتان فى السنة الخامسة أشارتا إلى وجود مشكلات دون إيضاح لنوعها . ونحن لا نعد هذه الردود كافية لسببين : الأول ما يدلنا عليه الجدول السابق (رقم ٥) من عدم رضى الأب والأم عن التدخين فى أغلبية الحالات (٣٤ أباً و٢٧ أماً) وهذا علامة نقص فى التوافق الاجتماعى للمراهق. والثانى ما يدلنا عليه الجدول التالى من وجود ١٥ حالة فيها تصميم على الإقلاع عن التدخين فضلا عن ٣ حالات فيها تردد وحيرة فى أمر إبطاله أو الاستمرار فيه . ويدلنا موقف أصحاب هذه الحالات على وجود نقص فى التوافق الشخصى للمراهق . وإذن فمشكلات التدخين فى مجموعتنا يبدو أنها أكثر مما دلت عليه الردود . ولعل سؤالنا ايضا كان بحاجة إلى زيادة فى التفصيل والتوضيح .

وتختلف الرغبة فى إبطال التدخين فى مجموعتنا باختلاف الأعمار . ويظهر أنها تأخذ فى الازدياد قرب البلوغ ثم تهبط ثم تزداد ثانية بالتدريج حتى العشرين ثم تتناقص مرة أخرى . يوضح ذلك الجدول التالى (رقم ٦) .

جدول ٦

يبين نسبة الراغبين فى إبطال التدخين بين ٤٦ مراهقاً .

العمر الحالى	عدد المدخنين فيه	راغبون فى الإبطال	مترددون	النسبة المئوية التقريبية لرغبة الإبطال
١٤	١	—	—	—
١٥	٦	١	—	١٧٪
١٦	٣	١	—	٣٣٪
١٧	٩	١	١	١١٪
١٨	٦	٤	—	٦٦٪
١٩	٩	٤	١	٤٥٪
٢٠	٨	٤	—	٥٠٪
٢١	١	—	—	—
٢٢	٣	—	١	—
جملة	٤٦	١٥	٣	٣٣٪

ونضيف إلى ما تقدم ما تدلنا عليه أرقام السجاير التى تدخن يومياً من ميل عملى

إلى الإبطال . فان هذه الأرقام يظهر تدرجها فى الهبوط فى ١١ حالة ، ٣ فى السنة الرابعة ، ٨ ٨ فى السنة الخامسة . ويختلف مقدار الهبوط فى التدخين اليومى (بمقارنة العام الحالى بسابقه) من سيجارة واحدة إلى عشر . وأصحاب ٧ من هذه الحالات راغبون فعلا فى قطع التدخين . أما الأربعة الآخرون فلم يبدوا هذه الرغبة . ولا ندرى إن كان هبوط التدخين عندهم راجعاً إلى عوامل خارجية كنقص المصروف أو تغير الظروف بانتهاء الحرب ، أم إلى عوامل داخلية كالزهد غير المقصود .

٨ — علاقة تدخين المراهقين بتدخين آبائهم (أو أولياء أمورهم) : ظهر لنا من نتائج هذا الاستخبار ، أن نسبة التدخين بين اباء الطلاب المدخنين هى نحو ٧٠/٠ (انظر جدول ٧) . وقد قمنا أيضاً باستقصاء نسبة التدخين بين آباء التلاميذ بصفة عامة فى الفصول التى شملها البحث فاتضح أنها تقل عن ٥٥ /٠ وأنها بين اباء غير المدخنين من التلاميذ نحو ٥٠ /٠ وقد وضحنا هذه المقارنة بالتفصيل من الجدول التالى : (رقم ٧)

جدول ٧

مقارنة انتشار التدخين بين آباء التلاميذ المدخنين وآباء غيرهم .

الفصل	عدد التلاميذ	عدد الآباء المدخنين	نسبة مئوية تقريبية	عدد التلاميذ غير المدخنين	عدد المدخنين من آبائهم	نسبة مئوية تقريبية	عدد التلاميذ المدخنين	عدد المدخنين من آبائهم	نسبة مئوية تقريبية
اولى ا	٤٠	٢٣		٣٣	١٩		٧	٤	
ثالثة ا	٣٩	٢٠		٣٤	١٦		٥	٤	
ثالثة ب	٣٩	٢٤		٣٧	٢٢		٢	٢	
رابعه ا	٣٦	١٩		٣٠	١٣		٦	٦	
رابعه ب	٣٤	١٤		٣٠	١٠		٤	٤	
خامسة ادبى	٢٥	١٤		١٤	٩		١١	٥	
خامسه رياضة	٢٢	١٤		١٤	٨		٨	٦	
خامسة علمى	٣٣	١٧		٣٠	١٦		٣	١	
جملة	٢٦٨	١٤٥	٥٤ /٠	٢٢٢	١١٣	٥٠ /٠	٤٦	٣٢	٧٠ /٠

٩ — الشعور الأول ، ومشجعات التدخين فيما بعد : دلت الردود على أن الشعور بالزهو و بالرجولة كان عاماً عند بدء التدخين . وأضاف عشرة من المدخنين إلى ذلك ، ما يدل على أن هذا الشعور ما يزال مشجعاً دائماً لهم على التدخين . ويلخص الجدول التالى (رقم ٨) توزيع أثر المشجعات الأخرى على التدخين بالنسبة للمدخنين من مختلف الأعمار فى مجموعتنا . ويتضح من هذا الجدول أن المذاكرة وتخفيف الهموم وتقليد الأصحاب هى — على الترتيب — أكبر مشجعات التدخين فى مجموعتنا . أما حب الفتيات وطلب السرور فإنهما يلعبان فيها دوراً ضئيلا نسبياً . ونلاحظ أيضاً من نفس الجدول أن هذه المشجعات لا تظهر كلها معاً ، وإنما تظهر متعاقبة إلى حد ما . فيظهر أولا طلب التسلية والسرور ، ويتلوه فى الظهور تقليد الأصحاب ، ثم الاستعانة بالتدخين على المذاكرة ، ويعقب ذلك ظهور الرغبة فى تخفيف الهموم بالتدخين . وآخر مشجعات التدخين فى الظهور حب الفتيات (إذا استثنينا حالة واحدة) .

جدول ٨

يبين نوع مشجعات التدخين عند ٤٦ مراهقاً من أعمار مختلفة .

الأعمار الحالية	عدد المدخنين فيها	المتأثرون بالتسلية والسرور	المتأثرون بتقليد الأصحاب	المتأثرون بالمذاكرة	المتأثرون بالهموم	المتأثرون بحب الفتيات
١٤	١	١				
١٥	٦	٣	١	٢		١
١٦	٣		١	٣	١	
١٧	٩	١	٥	٧	٨	٦
١٨	٦		٤	٥	٥	٤
١٩	٩	٤	٢	٥	٤	
٢٠	٨	١	٣	٤	٥	٢
٢١	١	١	١			
٢٢	٣	١	٣	٣	٢	١
جملة	٤٦	١٢	٢٠	٢٩	٢٥	١٤

ثانياً : تعليق على الوقائع

هل نستطيع أن نحصل على فائدة علمية أو عملية من سرد هذه الوقائع ؟ ألعلها تمكننا من تفسير نشأة التدخين عند المراهقين ؟ أو من تحديد وظائفه السيكولوجية فى مختلف الأعمار؟ أو من معرفة كيفية إبعاد النشء عنه ؟ لا يمكننا أن نطمع فى كل ذلك . فقيمة الاستخبار هى أولا إنارة ظاهرة معينة أمامنا ، هى ظاهرة التدخين بين بعض الطلاب المراهقين . فى أى سن تظهر ، كيف تتطور، وما العوامل التى تصاحبها أو تشجعها ، وما العوامل التى تقاومها . ولعل الوقائع قد أوضحت هذه الأمور فى مجموعتنا بما لا يدع مجالا مذكوراً للتعليق .

أما نحن وقد تركنا دور تقرير الوقائع فمن حقنا أن نتعمق وراءها قليلا ونسأل (١)ما أهمية شعور الزهو الذى يتملك المراهق حين يقبل أولا على التدخين ؟(٢)وما علة تمسك الكبار فى البيت غالباً وفى المدرسة دائماً بتحريم التدخين على المراهق ؟ (٣) وما علة إصرار المراهق على موقفه غالباً ،واسترساله فى التدخين ، وهو يعرف مقاومة المجتمع له ؟ وسنحاول أن نمهد لإجابة هذه الأسئلة من دراستنا لبعض الحالات.

١ — يميل المراهق إلى القيام بأعمال الرجال رغبة منه فى الاستمتاع بالشعور بأنه أصبح رجلا . وهذا الميل يساور الأطفال قبل المراهقة أيضاً ، ويظهر أثره فيهم وخصوصاً حين يلعبون . وليس التدخين الحقيقى أو التمثيلى ببعيد عن لعب الصغار . بل أن بعضهم يلح فى الأمر إلحاحاً بعيداً عن روح اللعب وقريباً من روح الجد . أذكر مثلا لطفل فى السادسة كان يلح على أبيه المدخن فى أن يسمح له بالتدخين ، وكان أقرب جواب عند الأب هو : « لما تصبح رجلا » . ومرة تطورت المناقشة بينهما على النحو الآتى :—

— الولد : طيب . أنا كبير الأب : لا الولد : لماذا ؟

الأب : لأنك لا تملك شارباً .

الولد : وما بال (و) (الأخ الأكبر) عنده شارب ولا يدخن ؟

الأب : لأنه أصغر من بابا .

ومثل آخر نستمده من أحد أصحاب الحالات فى هذا البحث . هو طالب فى التاسعة عشرة فى نهاية المرحلة الثانوية . نجح فى التغلب على التدخين على أثر قيامنا بالبحث فى العام الماضى . ولكن عاودته الرغبة فى العودة إليه ونحن فى أواخر العام

الدراسى الحالى ليستعين به فى المذاكرة . وكان من وسائلنا فى بحث حالته أن طلبنا إليه أن يقرر لنا كتابة تطور علاقته بالتدخين منذ الصغر . وقد جاء فى مستهل تقريره عن نفسه ما يأتى :

« كنت أشعر وأنا فى السادسة بميل إلى تدخين الورق الملفوف . وكنت أحب هذا النوع من العبث الصبيانى وأتمسك به بالرغم من الألم والضيق الذى كان ينتابنى من جراء ملء رئتى الصغيرتين بالدخان المؤذى . وقد كنت أضرب مرة وأنهر أخرى وأحياناً تطلب منى والدتى أن أقلع عن هذه العادة باللين . ومع هذا كنت ألف الورق وأنزوى فى ركن من أركان السطوح أنا وأمثالى من الصغار ونأخذ فى عملية تعكير المزاج ، . وكنا أثناء التدخين تنتابنا نوبة من « النفخة الكذابة » ، وكنا نظن أنفسنا قد أصبحنا رجالا . فكنا نتكلف عمل بعض الأعمال التى تمت إلى الرجولة كتخشين أصواتنا ، والكلام فى مواضيع كبرى ، بالنسبة لنا كأن يقول أحدنا لبنت الجيران وهى تلعب معنا « اسمعى يا زينب . سنذهب غداً إلى السوق لشراء جزم جديدة للأولاد ». وهكذا نجد أننا كنا أشبه بأسر فى لعبنا نقلد الكبار فى كل ما يفعلون ، والتدخين جزء يسترعى الاهتمام مما يفعله الكبار » .

وقد آثرنا أن نذكر هذين المثلين من حياة الصغار لأنهما يصوران حقيقة شعور الصغار والكبار معاً من جهة مغزى التدخين وعلاقته بمركز الفرد فى الجماعة ، تصويراً ساذجاً قلما نستطيع أن نستمده من تعبيرات الكبار فيما بينهم أو من أساليبهم فى التفكير أو فى المناقشة . فالتدخين فى المثل الأول لا يقل عن الشارب فى دلالته على الرجولة إن لم يزد ، من حيث أن (بابا) يتميز عن (و) (الأخ الأكبر) لا بالشارب ولكن بالتدخين . وفى المثل الثانى يرتبط التدخين « بالنفخة » و « بتخشين الصوت » و « الكلام فى مواضيع كبرى » .

وفى الحق أن للتدخين قدرة خاصة ، قد يصعب تفسيرها ، على إشعار المدخن بالاحترام والرفعة وعلو الشأن أمام الآخرين . ولعل منشأ التدخين ومصدر انتشاره فى العالم الممدن متأثر بهذه القدرة إلى حد ما . فقد ظهر التدخين أولا فى بلاط ملكى ، هو بلاط الملكة اليصابات فى انجلترا . (راجع مادة Tobacco فى الموسوعة البريطانية) ومنه انتشر إلى بقية الطبقات (وبقية البلدان) . وقد ارتبط التدخين بتقاليد معينة ، تدلنا على مبلغ أثره فى الاحترام الذى يناله المدخن بالنسبة لغيره .

ومن هذه التقاليد أن الأصغر مقاماً لا يجوز له أن يدخن أمام من هو أكبر منه . وما تزال بعض الأسر المحافظة عندنا ، وخصوصاً فى الريف ، تحرم على الأبناء ، حتى بعد زواجهم أحياناً ، أن يدخنوا فى حضرة الأب أو الجد . كما أنه من أكبر علامات التكريم للمرءوسين أن يسمح لهم رؤساؤهم بالتدخين فى حضرتهم ؛ وأبلغ من ذلك أثراً أن يقدموا لهم بأنفسهم لفافات التبغ وأبلغ من كل ذلك أخيراً أن يشعلوها لهم بأنفسهم .

والمراهقون لا يخرجون عن أن يكونوا متأثرين بهذا الأثر الذى يحدثه التدخين فى نفس صاحبه ، من جهة قدره ، ومن جهة وضعه بالنسبة للآخرين . فالسيجارة الأولى تشعر المراهق بالرجولة ، وتضاعف شعوره باحترامه . ولعل هذا الشعور بالاحترام أو بزيادة الاحترام يصادف حاجة ملحة عند المراهق ، وخصوصاً فى الطور الأول من المراهقة ، حين يكون الكبار غافلين عن نموه الجديد . وهو حين يلجأ إلى التدخين يتخيل أنه اكتسب بالفعل مكاناً فى مجتمع الرجال الذى يتوق إلى الدخول فيه بأسرع ما يمكن .

٢ — غير أن الكبار يميلون إلى عدم تشجيع الشعور بالرجولة عند المراهقين فى سن معينة . قد يكون الأمر راجعاً بعض الشىء إلى فجاجة المراهق ، وخوف الكبار (وهم غير متبصرين بحقيقة الموقف أحياناً) من أن يقف نمو المراهق ويبقى على فجاجته لو بادرنا بمنحه كل حقوق الرجال . وتدل أحاديثنا مع عدد من حضرات المدرسين على شيوع فكرة بينهم ، هى فكرة استحالة قيادة المراهق لو شجعنا فيه بعض مظاهر الرجولة وأخصها التدخين . ولعلهم أيضاً يقيسون خطر هذه الاستحالة (استحالة قيادة المراهق) بما سيترتب عليها من استحالة تعليمه . بل أن شعور بعض المدرسين (وبينهم آباء) مزدوج : هم يخشون على المراهقين عواقب الإفلات من أيدى أولى الأمر ، ويخشون على أنفسهم أيضاً من نتائج هذا الإفلات ، أو هذه « الثورة » .

وقد كنت أوجه إلى حضرات المدرسين سؤالين : الأول هو « بماذا تفسر ازدياد انتشار التدخين بين الطلبة فى السنوات الأخيرة ؟ » وأذكر من الإجابات هذه النصوص « انحطاط خلقى واستهتار بالكبار » « نزق بارز فى صرف المال » . « يعمل الواحد منهم أنه كبير . يكبر نفسه بغير حق » . « الطالب يفهم أن السجاير حاجة عظيمة » . « هذه قلة أدب فى ابتزاز أموال الأب ، وصرفها بغير حق » . « إن السجاير تكمل الرجولة فى نظر الطالب » .

والسؤال الثانى هو : « ماذا تقترح للقضاء على التدخين بين الطلاب ؟ » . وتنقسم الاجابات على هذا السؤال قسمين أساسيين : قسم يدعو إلى الشدة على درجات منها التأنيب والضرب وقطع المصروف والطرد . وقسم يدعو إلى الشدة الممزوجة باليأس . منها « المراقبة هى خير سبيل . ولكن ماذا تصنع المراقبة ؟ لن يقع الطالب فى يدك . لا يمكنك أن تكون له حارساً مستمراً . ستكون الغلبة فى النهاية للطالب » . وندر أن صادفنا إجابة هادئة تدعو إلى النصح وتقديم القدوة الحسنة ومنع الخلطة السيئة .

ولا تساعدنا هذه الإجابات كثيراً فى الوصول إلى تفسير واضح لموقف التحريم الذى يقفه الكبار . فما نزال نتساءل : لم لا يترك الكبار للصغار حرية التدخين ؟ الواقع أن دراسة الشعوب البدائية والممدنة على السواء تدل فى كل مكان على تردد الكبار وخشيتهم من إعطاء الصغار حقوق الرجولة الكاملة . ولعل هذا التردد وهذه الخشية لهما ما يبررهما من فجاجة الصغار وقلة خبرتهم وعجزهم عن تحمل المسئوليات الجسام قبل أن يمروا بتدريب طويل أو قصير فيه شىء من القسوة أحياناً ، وقبل أن يمتحنوا حتى يثق الكبار من أهليتهم للدخول فى مجتمع الرجال . وفى هذا نوع من الأمانة للتراث الإنسانى ، ونوع من التفانى فى المحافظة عليه ، بل وفى العمل على تقدمه . فالكبار لا يمنحون مثل مركزهم للصغار قبل أن يطمئنوا إلى أن الصغار سيأخذون الأمر بالجد ، وسيرعون للمركز حرمته ، وسيعملون على رعاية التراث بكل قوة . وللكبار إذن أن يقفوا من الصغار موقف الحذر ، فلا يفتحوا لهم باب مجتمعهم على مصراعيه ، يلجونه بغير امتحان ، لئلا يصبح التراث لعبة فى أيديهم فلا يقدرونه حق قدره . ومن خير ما يصور لنا هذه الروح الحذرة تصويراً رمزياً ، ولكنه تصوير خالص أيضاً من تعقيدات المدنية ، نظام حفلات الإطلاق عند البدائيين . Initiation ceremonies

Reik, Th.: Ritual, A psychoanalytic study.

٣ — ولكن ما بال الصغار يضطربون للأمر لو ضيقنا عليهم الخناق ؟ الواقع أنه يحق لهم أن يضطربوا . فإنهم لو خنعوا للكبار ، وتغاضوا عن طلب حقوق الرجال لانقلب هذا خطراً على التراث من ناحية أخرى ، بل لما وجد التراث بعد هذا سبباً وجوده أو نموه . فكيف يقوم تراث لا يسعى إلى الامتياز فيه أحد إلا فى بطء ورخاوة ؟ ولو وجد هذا التراث يوماً لباءت مخاوف الكبار من الصغار بالخيبة . ان الفتاة الجميلة تضن بقلبها لتحصل على خير رجل . ولكن ما أخسرها لو كانت طبيعة الرجال لا تتحرك للجمال ولا تدفع بهم نحو المرأة . فينبغى أن ننظر إلى الأمر من

ناحيتيه . الكبار يضنون على الصغار بحقوق الرجال ؛ ولكن هؤلاء تدفعهم طبيعتهم دفعاً فى شىء من العجلة أحياناً لنوال هذه الحقوق . فيلزمهم الكبار عند ذلك باثبات امتيازهم فى حفظ التراث . والخطر كل الخطر فى أن تتسرب هذه الحقوق إلى الصغار قبل الأوان ، وقبل أن يثبتوا جدارتهم لها .

فليبق إذن ذلك الصراع بين الصغار والكبار ما بقى الإنسان . وليحمل الصغار والكبار معاً غبار المعركة ، الذى يتكاثف كلما أساء أحد الفريقين سياسة الموقف . ولعل لنا أن نلقى العبء الأكبر من هذه السياسة على الكبار . ولتبق أيضاً بعض صعوبات النشء فى المراهقة ، وفيما قبلها أثراً ورمزاً لهذا الصراع الدائم الذى يدفع بالإنسان إلى الأمام جيلا بعد جيل .

ونرجو أن نتمكن من امتحان هذا الفرض أيضاً فى موضع اخر .

عبده ميخائيل رزق

N.B. The English summary of this research done by Abdou Mikhail Rizk is published in the foreign section of this issue .